شعرية الفضاء بين الغزل والشوق والحنين إلى البقاع المقدسة لامية حازم القرطاجني نموذجا

The poetic of space between love poetry, longing and nostalgia for Mecca, Hazem Kartajni model poem

أ. أمال حليتيم
أ.د. الربعي بن سلامة
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة منتوري – قسنطينة / الجزائر

الملخص:

راج الشعر الديني في الغرب الإسلامي كثيرا خاصة في عهد الموحدين والمرابطين، وكان كثير التنوع بين المولديات، والبديعيات، والمديح النبوي، والشعر الصوفي. بسبب الظروف السياسية التي سادت، وبسبب انتصار النصارى على المسلمين وفقدهم لمدنهم الواحدة تلو الأخرى. يعالج هذا المقال لامية حازم القرطاجني التي ضمَنها أعجاز معلقة امرئ القيس. واختلاف النقاد قديما في تصنيفها، كما يبحث عن الأسباب التي أدَت بالشاعر الى اتباع هذا النمط من التأليف، ولماذا قلب الغرض الأصلي للقصيدة من الغزل واللهو والوصف إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلَم والحنين إليه والتشوق الى زيارة قبره؟

الكلمات المفتاحية:

القرطاجني – تضمين – شوق وحنين إلى البقاع المقدسة – شعرية الفضاء

Abstract :

Religious poetry was popular in the Islamic West, especially during the Almohads and the Almoravids, and there was a lot of diversity between the Mawlidiyyas, Bediyya, the Prophet's praise, and the Sufi poetry because of the political conditions that prevailed and because of the victory of the Christians over the Muslims and their loss of their cities one by one. This article deals with the poem of Hazem Kartajni, and the difference of critics in the past in its classification, as well as looking for the reasons that led the poet to follow this style of authorship, and why he turned the original purpose of the poem from love poetry, having fun, and describing, to praising the Messenger, longing for him, and longing for visiting his grave.

Keywords:

Hazem Kartajni - inclusion - longing and nostalgia for Mecca - poetic of space

مقدمة

اشتهر حازم القرطاجني (608-684 هـ) بنقده وآرائه في الشعر والبلاغة، وكان علما بارزا في تاريخ النقد العربي القديم، لكن شعره لم ينل نفس الدرجة من الاهتمام-باستثناء المقصورة ربما-. تنوعت الأغراض الشعرية في ديوان حازم بين الغزل والمدح والوصف والزهد والمديح النبوي، ومن أبرز قصائد هذا الغرض الأخير لاميته التي اختار أعجازها من معلقة امرئ القيس، فالشطر الأول من البيت لحازم القرطاجني والشطر الثاني لامرئ القيس.

التصنيف النقدي للقصيدة:

اختلف النقاد في تسمية هذا النوع فمنهم من اعتبره تصديرا كالمقري: "وقد أذكرني هذا التصدير قصيدة الأديب حازم صاحب المقصورة، إذ صدّر قصيدة إمرئ القيس قفا نبك"[1].

فصدور الأبيات لحازم وأعجازها لامرئ القيس.

بينما سماها العبدري في رحلته بالمقلوبة قائلا: "وهي المقلوبة من قصيدة إمرئ القيس في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلَم، أجاد فيها وأبدع ما شاء الله ورام منها المرام الصعب فطاوع الإنشاء وهي مما ينبغي أن يقيَد ولا يهمل"[2].

حيث قلب أغراض معلقة إمرئ القيس من غزل ووصف إلى مديح نبوي، المقري صنَفها باعتبار الشكل لكن العبدري اهتم بالمضمون وصنفها حسب الغرض.

كما صُنّفت هذه القصيدة تحت باب المعارضة الشعرية والتشطير.

حين نناقش هذه التصنيفات نجد أن القصيدة لا تنتمي إلى أي منها؛ فالتصدير ليس بالمصطلح الشائع شعريا بل هو محسن بديعي: "وأما التصدير فهو رد أعجاز الكلام على صدوره بإعادة اللفظ الواقع في صدر البيت وتكريره في العجز ليكون فيه مناسبة ودلالة بأول الكلام على آخره، إذ اللفظ الواقع في الصدر يدل على اللفظ الواقع في العجز فتعلم القافية قبل الانتهاء إلى ذكرها"[3].

أما مصطلح المقلوبة فلم يرد – فيما نعلم – إلا عند العبدري ولم يستعمله غيره.

كما انَ القصيدة ليست معارضة فمفهوم المعارضة في الشعر: "أن ينظم شاعر قصيدة في موضوع معين على غرار قصيدة أخرى قالها شاعر متقدم عليه في الزمن، ملتزما الوزن والقافية وحركة الروي، فضلا عن المضمون بالمتابعة، والاحتذاء مجاريا بذلك الشاعر محاولا بلوغ شأوه ثم محاولا التفوق والابداع"[4]. هذا فيما يتعلق بالمعارضة التامة أما إذا فقدت أحد هذه الشروط فإنّها تصبح معارضة ناقصة.

ولاشك أنّ المضمون هنا مختلف كليا؛ فقصيدة امرئ القيس مضمونها غزل ولهو ووصف وقصيدة حازم مديح نبوي خالص.

أما فيما يخص التشطير فهو: "أن يأخذ الشاعر شطر بيت ويكمله، ويأخذ الشطر الثاني ويضع له صدرا وقد كثر التشطير في العهود المتأخرة"[5].

وحازم في هذه القصيدة أخذ الأعجاز فقط، ولم يأخذ صدور المعلقة باستثناء البيت الأول:

لعينيك قل إن زرت أفضل مرسل قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل
وفي طيبة فانزل ولا تغش منزلا بسقط اللوى بين الدخول فحومل[6]

والبيت الحادي عشر:

نبيَ الهدى قد قال للكفر نوره ألا أيَها الليل الطويل ألا انجل[7]

أما المصطلح الذّي هو الأقرب لتصنيف هذه القصيدة فهو "التضمين"، عرَفه أبو هلال العسكري قائلا: "وقد تسمي استعارتك الأنصاف والأبيات من شعر غيرك، وادخالك إياه في أثناء أبيات قصيدتك تضمينا"[8].

وكذلك كان رأي المقري في أزهار الرياض حيث قال: و"من بديع نظمه رحمه الله تعالى تضمينه قصيدة إمرئ القيس، وصرف معناها إلى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلَم، وهي من غرر القصائد"[9] غيَر المقري رأيه هنا وسماه تضمينا بدلا من التصدير في نفح الطيب كما سبق ذكره.

وكذلك كان رأي الشريف الغرناطي[10] عند شرحه لمقصورة حازم القرطاجني.

اختار الشاعر لهذه القصيدة عنوان: "حديقة الازهار وحقيقة الافتخار في مدح النبي المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأبرار"[11] على عادة أهل زمانه في السجع.

سبب اختيار معلقة امرئ القيس:

لكن السؤال الذي يطرح هنا، ما سبب اختيار حازم للمعلقة وتضمين أعجازها في قصيدته؟ هل هو مجرد تقليد للمعلقة؟ أم هو بحث عن الشهرة من خلالها؟ أم هو إعجاب بنموذج راق في الشعر العربي؟ أم أن هناك أسبابا أخرى وراء ذلك؟

إذا قارنا بين حياة كل من إمرئ القيس وحازم القرطاجني وجدنا بعض الشبه بينهما، رغم التباعد المكاني، فصاحب المعلقة من شبه الجزيرة العربية عاش في صحراء قاحلة معادية للإنسان، عاش في مجتمع طبقي تحكمه أعراف قاسية، عاش فراغا روحيا، وحازم أندلسي

عاش في بيئة مختلفة تماما عاش وسط طبيعة خلابة، في مجتمع منظم ومسلم، وكذلك التباعد الزماني بينهما فالأول جاهلي عاش قبل البعثة المحمدية والثاني أندلسي عاش في القرن السابع الهجري. إذن ما الذي جمع بينها شعريا وحياتيا؟

كلاهما عاش في دعة ورفاهية فحازم: " نشأ في بيئة ارستقراطية على قدر من رخاء العيش، فما وجدناه يشكو من فاقة حيث كان أبوه يعمل قاضيا، وكان للقضاة هناك مركز ممتاز لم يحظ به القضاة في أي إقليم عربي، إذ كان المسيطر الحقيقي على أمور الدولة بحيث لا يستطيع الحاكم البت في أمر دون موافقته"[12].

وكذلك كانت حياة امرئ القيس في بدايتها فهو أمير "من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل"[13] ثم يقتل والده وتتغير حياته كليا. ولابد له من أخذ ثأر والده، فتنقل بين القبائل طلبا للمساعدة حتى وصل إلى قيصر الروم ومات دون أن يحقق هدفه[14].

أما حازم القرطاجني فتوفي والده عندما كان في العشرين من عمره وتوالت انتصارات الإسبان على المسلمين في الأندلس، فاضطر لمغادرة وطنه، اتجه في البداية إلى مراكش التَي كانت تعاني بدورها من اضطرابات فلم يطب له المقام بها، ثم انتقل إلى تونس عاصمة الحفصيين ليستقر هناك معلما وشاعرا، مقربا من السلطان إلى أن وافته المنية فيها[15].

هذه ربما اهم أوجه الشبه بين حياة امرئ القيس وحياة حازم القرطاجني.

لا شك ان حازما عندما اختار المعلقة ليضمَنها قصيدته قد اختار النموذج الأرقى في الشعر العربي، اختار أدب القوة الذي هو: "أدب الإثارة وأدب المعرفة هو أدب التعلم او كما سماها دي كويسني بالمجداف أو الشراع الأول والثاني بالدفة"[16]. فالأدب العربي القديم هو النموذج الأول في الأندلس الذي تعلَم منه الأندلسيون ونسجوا على منواله أدبهم الذي هو أدب المعرفة، لكن هذا ليس معناه التقليد الأعمى بل على العكس كتب الأندلسيون أدبا راقيا مميزا صوَر آمالهم وأحلامهم وعكس بيئتهم.

فالقرطاجني لم يكن مقلدا أو عاجزا عن الإبداع عندما ضمنَ قصيدته أعجاز معلقة امرئ القيس، بل على العكس حوَلها تحويلا جذريا: "تأمَل كيف طوّع الشاعر حازم موضوع امرئ القيس وهي في التغني بالشباب وبالصّبا وبالغواية وباللهو، والصيد والوصف. ليحوّل كل ذلك وبقدرة مقتدر فنيا .... ليبقى المعنى كما هو وكما أراده حازم في مدح النبي والإشادة بمكارمه .... حتَى ليكاد القارئ يعتقد جازما أنَ هذه القصيدة لشاعر واحد"[17].

في لحظة الضعف أو في لحظة الأزمة والحيرة عندما فقد حازم الأمان لجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلَم مادحا ومتشوقا إلى زيارته، واتخذ الشعر الجاهلي مطية لذلك، حازم عاد إلى أصوله فهو أنصاري.[18]

فكما وقف واستوقف وبكى واستبكى امرؤ القيس قديما:

قفا نبك من ذكـــرى حبيب ومنـــــزل بسقــط اللوى بين الدخول فحومل[19]

وقف حازم وبكى بعده بقرون.

اللاشعور الجمعي قاسم مشترك بين الشاعرين:

أثار وجود الطلل في الشعر الجاهلي عدة تساؤلات قديما وحديثا، وحاول النقاد البحث عن تفسير لهذه الظاهرة بداية من ابن قتيبة ثم بعض المستشرقين وبعض النقاد العرب المعاصرين، وتنوعت التفسيرات بين الفنية والنفسية والفلسفية،[20] ما يهمنا من هذه التفسيرات هو التفسير النفسي.

أحدث مفهوم اللاشعور عند سيغموند فرويد (Sigmund Freud) ثورة في علم النفس، إضافة إلى اللاشعور الجمعي الذي حدد مفهومه كارل يونغ (Carl Jung) – الذي يعنينا في هذا البحث – بقوله: "ذلك انّ اللاشعور الجمعي جماع تجارب الإنسانية، وقد انحدرت إلينا من أسلافنا البدائيين عابرة نفوس الأجداد والآباء"[21]. إذن فكل انسان بداخله رواسب من تجارب الإنسانية السابقة، وأضاف يوسف اليوسف لهذا الجانب

النفسي جانبا اجتماعيا بقوله: "اللاشعور الجمعي، باختصار المضمون الباطني للوعي* الجماعي، أي جملة احباطات الذات الجماعية، ورد فعل هذه الذات على تلك الاحباطات ابتغاء تجاوزها، وذلك بوصفها المعوّق الرئيسي للصيرورة التاريخية، هذا المعوق ما لم يتم تخطيه فإن روح الجماعة ستظل موجوعة"[22].

ما الذي ترسَب في اللاوعي الجمعي لامرئ القيس وعبَر عنه شعريا وترسَب في اللاوعي الجمعي لحازم وعبَر عنه شعريا أيضا؟

يعتقد يوسف اليوسف أنَ المعلقة تعبّر عن ثلاث لحظات نفسية عانى منها صاحبها:

1. القمع الجنسي.
2. قحل الطبيعة.
3. الانهدام الحضاري[23].

في مقدمة المعلقة يعاني امرؤ القيس من البعد عن المرأة التَي يحب ويعلن ذلك من البيت الاوّل، يقف على طللها ويبكي على فراقها ويعدد أسماء منازلها واحدا واحدا وكأنَه يريد لها الخلود أو على الأقل خلود ذكراها، وحازم أيضا يعاني من البعد عن رسوله صلى الله عليه وسلَم، ملاذه في لحظات الضعف واليأس، بشيره في الدَنيا وشفيعه يوم القيامة.

ذلك يشكو القهر الاجتماعي في بيئة مغلقة لا تقبل العلاقات العاطفية، وهذا يشكو "القهر المكاني" يود زيارة ممدوحه لكن بعد المسافة حال دون ذلك، هو يقيم في الأندلس وقبر الرسول صلى الله عليه وسلَم في المدينة المنورة.

وكما أكّد صاحب المعلقة على أسماء الأمكنة أكّد حازم هو الآخر على الأسماء، فهو هنا، على عادة القدماء يجرّد من نفسه مرافقا يتوجه إليها بالنصيحة فيقول:

وفي طيبـــة فانـــــزل ولا تغش منـــزلا بسقط اللوى بين الدخـــول فحومل[24]

لكن إذا سمحت لك الظروف وتمكنت من الزيارة فانزل بطيبة مدينة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم ولا تزر أماكن امرئ القيس فلا علاقة لك بها واقعيا بل هي علاقة شعرية فقط فالأماكن تغيرت كما تغير المحبوب، تلك أماكنه هو وذكرياته هو لكن لحازم أماكن أخرى ومحبوب آخر، حياتهم انتهت ودينهم انهزم وذكرياتهم اندثرت، بقي فقط شعرهم.

عانت فضاءات امرئ القيس من قحل الطبيعة والجفاف واضطراره لتغيير مكان الإقامة في كل مرة بحثا عن حياة أفضل، أو بالأحرى بحثا عن الحياة نفسها، فلا حياة دون ماء لا سيما في الصحراء، كما عبَرت كذلك عن حضارات كانت موجودة في نفس المكان في عصور سابقة عاش في كنفها العربي حياة هانئة مستقرة لا خوف فيها، عرف فيها الإحساس بالأمان والاستقرار، ترسّبت في لاوعي الانسان الجاهلي، عبر عنها الشاعر وعن ألمه لانهدامها.

ويعاني حازم أيضا في الزمن الحاضر البعد عن وطنه واضطراره للسفر بحثا عن مكان أفضل للعيش فيه، ويعاني من رؤيته لحضارته تتهدم وتزول أمام ناظريه يعاني من توالي انتصارات النصارى على المسلمين، ومن توالي سقوط المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى بيد الأعداء، يعاني من فقد المنزل الملاذ الآمن له ولأسرته ويعاني من فقد الوطن الملاذ الآمن لكل المسلمين الأندلسيين وزوال حضارة عظيمة عمّرت قرونا عديدة، ولا يملك أن يوقف الأمر بل فقط يبكي بحرقة ويلجأ لربّه ورسوله حاجا، محرما ومصدقا، وبالطريقة نفسها يجرّد من نفسه رفيقا يتوجه إليه بالنصيحة فيقول:

وزر روضـــة قد طالما طاب نشـــــرها لما نسجتـــــها من جنـوب وشمـــأل
وأثـــوابك اخلع محرمـــا ومصـــدَقا لدى الستر إلا لبســـة المتفضـــل[25]

روضة النبي صلى الله عليه وسلّم تعبق برائحته الطيبة، ورياح امرئ القيس الشمالية والجنوبية التي كانت تساهم في تدمير آثار الديار، هي عند حازم تنشر ريح النبي الزكية لتعم

كلَ الدنيا وربما وصل بعض أثرها ووجده حازم، لكنَه يفيق من حلمه ويجد نفسه في مكانه، بعيدا عن الكعبة يلبس ملابسه العادية وليست ملابس الإحرام، ويعود لدموعه فهو لا يملك غيرها ويبكي بحرقة:

لدى كعبة قد فاض دمـــعي لبعـــدها على النحـــر حتى بـــلّ دمعي محملي[26]

كما بكى امرؤ القيس قديما بحرقة عندما تذكَر حبيباته:

ففاضت دمـــــوع العين مني صبـــابة على النحـــر حتى بلّ دمعي محملي[27]

بعد لحظة الحقيقة والانكسار يتجدد الأمل لدى حازم، ويعود لعالم الأحلام عسى أن تتحول يوما ما إلى حقيقة. يقول في البيت اللاحق:

فيا حادي الآمال ســر بي ولا تقـــــل عقــرت بعيري يا امــرأ القيس فانزل[28]

الحادي عادة يسوق الإبل لكنه هنا يسوق الآمال ويغني لها عساها تتحقق يوما ما.. الأمل باندحار العدو وعودة الأرض إلى المسلمين، وعودة النازحين إلى أوطانهم التَي هجروا منها قسرا، والأمل بإقامة شعيرة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلَم، ووسيلته في تحقيق ذلك بعير لا يتعب ولا يدمي ظهره ثقل الأحمال ولا طول الطريق.

وهذا البيت في النص الأصلي كذلك هو بيت يعبر عن الفرح، فبعد الحزن والبكاء واليأس من الطلل:

وإنّ شفـــــائي عبـــــــرة مهراقـــــة فهــل عند رســـم دارس من معوّل[29]

تأتي لحظة الفرح عندما يتذكر لهوه ومغامراته وكرمه:

تقــول وقد مـــــال الغبيـــــط بنا معا عقرت بعيري يا امـــرأ القيس فانزل[30]

يحاور حازم نفسه في الأبيات الموالية تلومه، تعاتبه، تتوعده، تقرَر بدلا عنه تعرف جيدا طريق الخلاص والنجاة من محنتها:

فقـــد حلفت نفسي بـــذاك وأقسمت عـــــــليّ وآلت حلفـــــة لم تحـــلَل

فقلـت لـــــــها: لاشك أنَي طائـــــع وأنَك مهـــــما تأمري القلب يفعـــــل

وكم حملت في أظهـــر العـــزم رحلها فيا عجبـــا من كـــورها المتحمّـــل
وعاتبت العجـــز الذي عاق عزمـــها فقالت لك الويـــلات إنّك مرجلي[31]

وكأنَّها شخص آخر هي تريد تحقيق هدف ولا تهمها الصعاب ولا المخاطر التي تحدق بها في سبيل الوصول لمبتغاها، وأقسمت يمينا لم تستثن فيها وهو مطيع لنفسه فهي تتطلع لهدف سام فيه خلاصها من كل الآلام التي عانت منها، وفاة والده، وضياع وطنه، واضطراره للتنقل إلى مراكش التي لم يطب له فيها المقام، ثم إلى تونس التَي استقر بها وأصابه العجز ولم يكمل طريقه إلى الحجاز وتلومه وتتوعده بالويل، هو صراع بين الأنا في طلبها للاستقرار والراحة والأنا الأعلى في تطلعها لتحقيق المثل العليا.

واكتفى بمدح النبي صلى الله عليه وسلّم وتعداد مناقبه ومعجزاته وفضله على البشرية، آخر الأنبياء والمرسلين رسالته خالدة فهو الذَي أضاء لها دربها، وذهب نوره بظلام الليل وما عاد صباح الأرض المنير كليلها حالك السواد، وما عاد الإنسان بلا غاية في هذه الحياة، وأصبح له هدف يحيا من أجل تحقيقه في الحياة الدنيا غير إشباع غرائزه وانتظار الموت، وهدف آخر يسعى لبلوغه في الآخرة.

قال امرؤ القيس شاكيا:

الا أيّها الليـــــل الطويـل ألا انجـــل بصبح وما الإصبـــاح منك بأمثل[32]

وحوَّله حازم القرطاجني:

نبي هـــدى قد قـــال للكفـــر نـوره ألا أيَها الليل الطويـــــل ألا انجـــل
تلا ســـــورا ما قولهـــا بمعـــارض إذا هي نصَتـــــــه ولا بمعطّـــل[33]

وتمكن من تغيير مسار أعجاز أبيات المعلقة بطريقة سلسة من الغزل إلى المديح النبوي، وكأنه هو قائلها الأول، وكأنَ المديح النبوي غرضها الأصلي الذي قيلت فيه أولا، وكأنّها من نسج شاعر واحد، لا من نسج شاعرين في مكانين متباعدين وزمانين أكثر تباعدا.

يصل حازم لخاتمة قصيدته ليؤكد فيها حبه وتشوقه لزيارة نبيه:

لأمـــــداح خير الخلق قلبي قد صبـــا وليس فـــؤادي عن هواها بمنســـل
فدع من لأَيَام الصبـــــابة قد صبـــا ولا سيَما يـــوم بـــدارة جلجـــل
وأصبـــح عن أم الحويرث ما ســـلا وجـــــارتها أمَ الرباب بمأســـل[34]

يتصالح حازم مع نفسه في هذه الأبيات ويعرف هدفه ومراده في الحياة، لا يريد لا اللهو ولا الغزل، هناك ما هو أهم في هذه الحياة، وهناك حياة أخرى سيعيشها في عالم آخر، لابد أن يعدَ العدة لها، وعلى كل هو قد عاش حياة الدنيا وتمتع بها:

وأمَل به الأخـــرى ودنيـــاك دع فقد تمَتعت من لهـــو بها غير معجـــل[35]

يعود إلى ربه تائبا، مستغفرا راجيا عفوه ومغفرته، ويتمنى أن يتخلّص من أعدائه وينجو منهم كما نجا امرؤ القيس من أعدائه ولم ينالوا منه وهم من الإنس، وعدو حازم هي نفسه التّي تزين له الشهوات، وهنا يتحول الصراع النفسي الذي يعيشه القرطاجني من الصراع بين الأنا الأعلى والأنا إلى الصراع بين الأنا والهو، فهو يريد التسامي والترفع والنجاة يوم الآخرة ونفسه تريد الدنيا:

وكـــن كمنيب للفـــــؤاد مـــؤنب نصيـــح على تعـــذاله غير مؤتـــل
ينـــــادي إلهي إنّ ذنبي قـــد عـدا عليّ بأنـــواع الهمـــوم ليبتـــلي
فكن لي مجيرا من شيـــاطين شهـــوة عليّ حـــراص لو يسرون مقتـــلي
وينشـــد دنيـــاه إذا ما تـــدللت أفاطـــم مهـــلا بعض هذا التـــدلل[36]

يفتخر حازم بشعره وهو الناقد الخبير بخبايا الشعر، يميز الجيد منه والرديء:

أيا سامـــعي مدح الرســـول تنشقوا نسيـــم الصبـــا جاءت بريا القرنفـل
وروضـــة حمـــد للنبي محمـــد غـــذاها نمير المـــاء غير المحـــلّل
ويا من أبى الإصـــغاء ما أنت منتـــه وما إن أرى عنك العمـــاية تنجـــلي
فلو مطفـــلا أنشدتها لفظها ارعـوت فألهيتـــها عن ذي تمائـــم محـــول
ولو سمعتـــه عصـــم الطود أمالها فأنزل منها العصـــم من كل منزل[37]

شعر لا يضاهيه شعر ومعان لم يبلغها شاعر قبله، ولفظ يلهي المرضعة عن رضيعها، ويميل الجبل العظيم وينزل الوحوش من منازلها. ختم امرؤ القيس المعلقة بدمار كبير أصاب الأرض بعد السيل الجارف،وختم حازم لاميته بتجاوب وتأويب الجبال والطير مع شعره، وهو يذكرنا بتجاوب وتأويب الجبال والطير مع مزامير داود حين كان ينشدها.

الفضاء قاسم مشترك بين القصيدتين:

كان للقصيدتين نفس الفضاء المرجعي، لكن الفضاء الشعري كان مختلفا، فضاء امرئ القيس معادي طلله "الذي تحوَل المعمار فيه إلى صحراء أي المعمار في درجة الصفر، وإنّ أبسط وصف للصحراء وأكثره وضوحا هو أنّها فضاء واسع وعالم شرس لا يرحم، وفضاء للهلاك والموت المجاني"[38].

ونفس الفضاء تحول عند حازم إلى الفردوس المفقود الذي يتوق إليه ويود زيارته وفيه خلاصه من الآلام التَي يعاني منها، وهذه خاصية من خصائص الفضاء الشعري يقول رشيد يحياوي: "ومن جهة ماهية هذا المكان وحقيقته نلاحظ وجود خاصيتين أخريين هما اتسام المكان الشعري بالتشتت والاختراق. فمن الصعب أن نحصر طبيعة المكان في الشعر لأنه عبارة عن شتات من الأماكن بحسب تداعيات الحالات والصور والمشاهد والأفعال والذوات. غير أن هذا الشتات يتميز بكونه مخترقا ببعضه حتى إن المكان يتحول إلى ضده أو يخترق به فضلا عن أن الشاعر يستطيع باستثمار لغة الاستعارة والمجاز والمفارقة أن ينسب مثلا فعل المكان المائي إلى المكان الناري، وفعل مكان الموت إلى مكان الحياة."[39]

حوَّل حازم فضاء الضياع والعدم والموت إلى فضاء أمل وحياة، بدأت المعلقة بالطلل الدارس المقفر الذي غادره أهله وحلّت محلهم حيوانات متوحشة، لم يجد فيه امرؤ القيس غير الدموع والذكريات المؤلمة، وغادره مسرعا إلى ذكريات الفرح والسعادة التَي عاشها مع أحبابه، لكن الهموم سرعان ما عادت إليه مع الليل الطويل والصباح المجهول والسيل الجارف الذي لم يبق ولم يذر، جرف كل شيء وخلّف وراءه دمارا رهيبا.

وبدأت لامية حازم بالأمل في زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلَم، ثم مدحه وتعداد خصاله وفضله على البشرية، والدعوة لاتباع سنته وترك الدنيا ولذّاتها والاهتمام بالآخرة، وختمها بالفخر بشعره الفريد من نوعه؛ الذي تأثيره في النفوس كتأثير امرئ القيس في النساء وتأثيره على الطبيعة كتأثير السيل الجارف عليها، بل تأثيره فيما حوله وفيمن حوله كتأثير مزامير داود؛ التي لم تكتف باجتذاب البشر إليها، وإنما جعلت الجبال والطير تؤوب معه وتردد ألحانه حين ينشدها.

خاتمة:

لا شك أن شعر الشاعر يمثل بيئته وثقافته وتاريخه، وهذا ما تثبته قصيدة حازم القرطاجني في المديح النبوي والتّي ضمّنها أعجاز معلقة امرئ القيس.

تشابهت حياة الشاعرين؛ كلاهما بدأ حياته في رخاء ورفاهية وكانا من ذوي السلطة، ثم فقد كلاهما والده؛ فامرؤ القيس كانت بداية المأساة والتحول الجذري في حياته، كان عليه أن يأخذ ثأره وبدأ رحلة البحث عمن يساعده وتنقل بين القبائل دون جدوى. أما حازم فَقَدْ فَقَدَ هو أيضا والده ووطنه، وتنقل بين المدن بحثا عن وطن بديل ليستقر أخيرا عند الحفصيين. كلاهما بكى حضارة تهدمت؛ امرؤ القيس لا شعوريا وحازم عاش هذا التهدم في الواقع.

خلّد امرؤ القيس فضاءاته البدوية وبقي شعره على مر العصور، أما حازم فقد اتكأ على هذا الشعر الجاهلي، ولكنه استطاع –من خلال حنينه وأشواقه إلى تلك البقاع وإلى ساكنها– أن يحول تلك الفضاءات الجاهلية إلى فضاءات إسلامية تحمل معاني ودلالات دينية جديدة ومختلفة كليا عن دلالاتها السابقة.

الهوامش والإحالات:

[1]- المقري التلمساني أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، لبنان،1968، ج5، ص519-.520

[2]- العبدري محمد بن محمد بن علي، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم الكرد، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط2، 2005، ص523.

[3]- الشريف السبتي محمد، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، تحقيق محمد الحجوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1997، ج1، ص.195

[4]- البجاري يونس طركي سلوم، المعارضات في الشعر الاندلسي دراسة نقدية موازنة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2008، ص.48

[5]- مطلوب أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط1، 1989، ج1، ص.341

[6]- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص.179

[7]- نفسه، ص .179

[8]- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي محمد أبو النضر إبراهيم، دار الفكر العربي، ط2، ص .42

[9]- المقري التلمساني أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق سعيد أحمد أعراب عبد السلام الهراس، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المملكة المغربية الامارات العربية المتحدة، 1980، ج3، ص 178.

[10]- ينظر الشريف السبتي محمد، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، ج1، ص .551

[11]- القرطاجني حازم، ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، لبنان، دت، ص .89

[12]- عمر ادريس عبد المطلب، حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي، دار الجنادرية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 2008، ص.16

[13]- ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط11، ص.238

[14]- ينظر نفسه، ص138-.242

[15]- ينظر القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1986، ص55- .60

[16]- بن ثقفان عبد الله بن علي، ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، العدد11، تونس، جانفي 1994، ص.50

[17]- بحري سعيد، الشعر في ظل الدولة الحفصية دراسة تاريخية فنية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص328.

[18]- ينظر المقري التلمساني أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج3، ص 172.

[19]- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط5، 1990، ص.8

[20]- ينظر عطوان حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مصر، 1970، ص209-.235

[21]- السويف مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، ط4، 1981، ص203-204.

[22]- اليوسف يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا1975، ص118.

*- ربما يقصد الكاتب هنا اللاوعي فهو الأنسب للسياق.

[23]- ينظر نفسه، ص141-.147

[24]- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، ص.179

[25]- نفسه، ص.179

[26]- نفسه، ص.179

[27]- امرؤ القيس، الديوان، ص.9

[28]- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، ص.179

[29]- امرؤ القيس، الديوان، ص.9

[30]- نفسه، ص.11

[31]- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، ص.179

[32]- امرؤ القيس، الديوان، ص.18

[33]- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، ص.179

[34]- نفسه، ص.183

[35]- نفسه، ص.183

[36]- نفسه، ص.183

[37]- نفسه، ص.184

[38]- روابنية حفيظة، فضاء الصحراء وشعرية التسمية والتراتب والمرء في القصيدة الجاهلية، مجلة الآداب، العدد 12، قسنطينة، 1432هـ 2011م، ص50-.51

[39]- رشيد يحياوي، الصورة المكانية شعريا، مجلة نزوى، العدد 53، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والاعلان، جانفي 2008، ص18، متاح على الشبكة الالكترونية http://www.nizwa.com/pdf/Nizwa-53.pdf

قائمة المصادر المراجع:

1- امرؤ القيس، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط5.

2- البجاري يونس طركي سلوم، المعارضات في الشعر الاندلسي دراسة نقدية موازنة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2008

3- بحري سعيد، الشعر في ظل الدولة الحفصية دراسة تاريخية فنية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.

4- بن ثقفان عبد الله بن علي، ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسي، مجلة دراسات أندلسية، العدد11، تونس، جانفي 1994.

5- رشيد يحياوي، الصورة المكانية شعريا، مجلة نزوى، العدد 53، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والاعلان، جانفي2008.

6- روابنية حفيظة، فضاء الصحراء وشعرية التسمية والتراتب والمرء في القصيدة الجاهلية، مجلة الآداب، العدد 12، قسنطينة، 1432هـ 2011م.

7- السويف مصطفى، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، مصر، ط4، 1981.

8- الشريف السبتي محمد، رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، تحقيق محمد الحجوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.

9- القرطاجني حازم، ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، لبنان، دت.

10- القرطاجني حازم، قصائد ومقطعات حازم، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972.

11- القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط3، 1986.

12- العبدري محمد بن محمد بن علي، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم الكرد، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط2، 2005.

13- العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي محمد أبو النضر إبراهيم، دار الفكر العربي.

14- عطوان حسين، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مصر، 1970.

15- المقري التلمساني أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق سعيد أحمد أعراب عبد السلام الهراس، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المملكة المغربية الامارات العربية المتحدة، 1980.

16- المقري التلمساني أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر، لبنان، 1968.

17- مطلوب أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط1، 1989.

18- اليوسف يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا 1975.
19- مطلوب أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ط1، 1989.